الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل*

بقلم الدكتور: زغلول النجـار

هذه الآية الكريمة جاءت في مطلع الخمس الأخير من سورة الزمر، وهي سورة مكية، وآياتها خمس وسبعون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم للإشارة فيها إلى سوق المجرمين من الكفار والمشركين في يوم القيامة إلى جهنم زمرا، وإلى سوق المتقين من المؤمنين الموحدين إلى الجنة زمرا.
ويدور المحور الرئيسي للسورة حول قضية العقيدة وإن جاءت بها بعض اللمحات عن طبيعة النفس الإنسانية، وعن مصائر المؤمنين والكافرين في الآخرة، وعما أصاب المكذبين من الأمم السابقة، وضربت السورة الكريمة عددا من الأمثال واحتوت على العديد من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية في إبداع الخلق وفي تحقيق البعث.

جاء في سورة الزمر عدد غير قليل من الآيات الكونية الشاهدة لله(تعالى) بطلاقة القدرة في خلق الكون، وبالقدرة على إفنائه، وبالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه(بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا زوجة، ولا ولد)، ومن هذه الآيات ما يلي: الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل*(الزمر: ٦٢)

. وقبل الدخول إلى ذلك أرى لزاما على أن أعرض لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

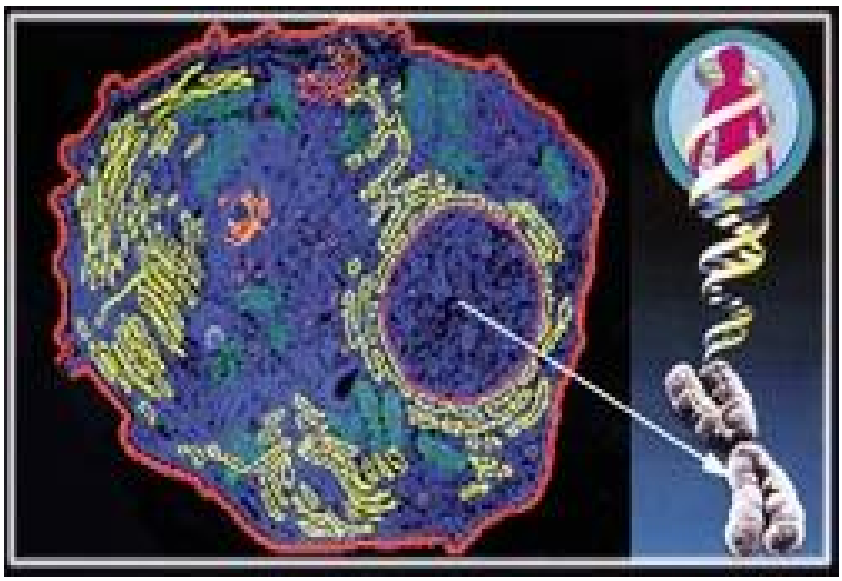

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على الرغم من ضخامة دلالتها، فإن المفسرين قد أوجزوا في شرح هذه الآية الكريمة إيجازا كبيرا.
ففي شرح قوله(تعالى): الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل(الزمر:٦٢)

* ذكر ابن كثير(رحمه الله) ما نصه: أنه خالق الأشياء كلها، وربها، ومليكها، والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره، وقهره، وكلاءته...
* وجاء في تفسير الجلالين(رحم الله كاتبيه) ما نصه:(الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل) أي يتصرف فيه كيف يشاء

* وذكر صاحب الظلال(رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه: هذا القطاع الأخير في السورة يعرض حقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذي خلق كل شئ، المالك المتصرف في كل شئ، فتبدد دعوة المشركين للنبي(صلى الله عليه وسلم) إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم في مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه!! تبدو هذه الدعوة مستغربة، والله هو خالق كل شئ، وهو المتصرف في ملكوت السماوات والأرض بلا شريك، فأنى يعبد معه غيره، وله وحده مقاليد السماوات والأرض؟!
* وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم(جزى الله كاتبيه خيرا) ما نصه: الله خالق كل شئ " وهو وحده " على كل شئ وكيل، يتولى أمره بمقتضى حكمته.
* وجاء في صفوة التفاسير(جزى الله كاتبها خيرا) ما نصه:(الله خالق كل شئ) أي الله جل وعلا خالق جميع الأشياء وموجد جميع المخلوقات، والمتصرف فيها كيف يشاء، لا إله غيره، ولا رب سواه(وهو على كل شئ وكيل) أي: هو القائم على تدبير كل شئ.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

تنص هذه الآية الكريمة علي أن كل ما في الوجود بوجهيه من عالم الغيب وعالم الشهادة هو من خلق الله الذي خلقه بعلمه وحكمته وقدرته، ويرعاه برعايته و رحمته التي لو تخلت عن الوجود طرفة عين أو أقل من ذلك لانهار وانتهى.
ومن مخلوقات عالم الغيب أخبرنا القرآن الكريم عن الملائكة والجن، ومن مخلوقات عالم الشهادة أعلمنا بكل من الإنسان والحيوان والنبات(من الأحياء)، وبمختلف صور المادة والطاقة(من الجمادات)، ومن الأماكن والأزمنة وهي من أبعاد الوجود المادي.

وعملية الخلق بأبعادها الثلاثة: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان عملية غيبية، لم يشهدها الإنسان ولذلك يقول الحق(تبارك وتعالى) في محكم كتابه:
ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا* (الكهف:٥١)
وعلى الرغم من ذلك يقول ربنا(عز من قائل):
قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير* (العنكبوت:٢٠)
وبالجمع بين هاتين الآيتين الكريمتين يتضح لنا أنه على الرغم من أن الإنسان لم يشهد عملية الخلق لأنها سابقة لوجوده، إلا أن الله(تعالى) قد ترك لنا في صخور الأرض، وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان المؤمن بالله على الوصول إلى تصور صحيح عن كيفية الخلق.

أما غير المؤمن فيرى الشواهد الحسية ويلمسها بيديه ولكنه في محاولة نسبة الخلق إلى غير الله فإنه يتوه في سيل من الفروض والنظريات التي تحيد به عن الحق، ولا توصله إلى شيء.
ولذلك جاء التأكيد في هذه الآية الكريمة:
الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل [الزمر:٦٢]

وفي العديد غيرها من الآيات القرآنية على حقيقة الخلق حتى لا يتوه المؤمنون في متاهات الضالين من الكفار والمشركين الذين ضلوا وأضلوا البشرية حتى في زمن العلوم والتقنية الذي نعيشه.
من هنا جاء الفعل خلق بمشتقاته المختلفة ٢٥٢ مرة في القرآن الكريم، مؤكدا أن الله(تعالى) هو خالق كل شيء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

متاهة الكافرين في قضيتي قدم الكون وتدرج عمارة الأرض بالحياة

في محاولة لنفي الخلق وإنكار الخالق ادعي الكافرون منذ القدم بأزلية العالم، وجاءت الكشوف العلمية المثبتة لقدم الكون، وقدم الحياة على الأرض فتصور الملحدون في ذلك دعما لدعواهم.

كذلك جاءت عملية اكتشاف التدرج في الخلق ابتداء من خلق اللبنات الأولية للمادة، إلى خلق كل من الجمادات والنباتات والحيوانات حتى توجت الحياة بخلق الإنسان ـ ذلك المخلوق المكرم كما وصفه الحق(تبارك وتعالى)، جاءت تلك الكشوف فتخيل فيها الكافرون دعما لدعواهم الباطلة بعشوائية الخلق مما لا يقوم عليه دليل واحد.

فربنا(سبحانه وتعالى) خلق الخلق كله على مراحل متطاولة ـ وهو القادر على أن يقول للشيء كن فيكون ـ وذلك لسببين واضحين:

أولهما: أن الله(تعالى) قد أراد بذلك أن يتيح للإنسان المتدبر في الكون الفرصة الكافية لفهم سنن الله الحاكمة للوجود كله حتى يتمكن من حسن توظيفها في عمارة الأرض، كما يتمكن من أن يرى من خلالها شيئا من قدرة الخالق العظيم، وعلمه، وحكمته، فيسجد له بالعبادة والطاعة، ويرى الوحدة في بناء الكون وهي الناطقة بوحدانية الخالق العظيم، كما يرى الزوجية في جميع المخلوقين من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان شاهدة لله الخالق بكمال الوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، تلك الوحدانية التي لا ينازعه فيها منازع، ولا يشاركه شريك، فالجميع إبداع خلقه، وتمام صنعته فكيف يجرؤ أحدهم على أن يتطاول إلى مقام الألوهية؟

... وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم* [المائدة:٧٣]

ثانيهما: أن الزمن إذا كان حدا من حدود الإنسان، ومن حدود غيره من المخلوقات، فهو من خلق الله، والمخلوق لا يحد الخالق أبدا، فمهما يتطاول الزمن فهو بين إصبعين من أصابع الله(تعالى) يتحكم فيه كيف يشاء.

وبدلا من فهم القضية في هذا الإطار اندفع دعاة المادية إلى الافتراض الخاطئ بنفي الخلق، وإنكار الخالق (سبحانه وتعالى) بدعوى أزلية الخلق، أو عشوائيته، وهما افتراضان يتعارضان مع جميع الملاحظات العلمية الدقيقة في صخور الأرض، وفي صفحة السماء، ومن هنا جاءت الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها، كما جاء غيرها من مئات الآيات شاهدة بأن الله(تعالى) هو خالق كل شيء، مما يتنافى مع الادعاء بأزلية الوجود أو العشوائية في الخلق.

قدم الكون وانتفاء أزليته وأبديته يؤكدان حقيقة الخلق

تؤكد الملاحظات العلمية في الجزء المدرك من الكون أن الحرارة تنتقل فيه باستمرار من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولو كان الكون أزليا كما يدعي المبطلون لتساوت حرارة جميع الأجسام فيه وانتهى وجوده منذ زمن بعيد، واستمرار الكون في التواجد مع استمرار الانتقال الحراري ينفي أزليته، كما ينفي أبديته، ويؤكد أنه مخلوق، مستحدث، له في الأصل بداية يقدرها العلماء اليوم بأكثر من عشرة بلايين من السنين(إلى حوالي أربعة عشر بليونا من السنين) ولابد وأن ستكون له في يوم من الأيام نهاية لا يعلمها إلا الله الخالق(سبحانه وتعالى) وإن كانت السنن الحاكمة للكون اليوم تشير إلى حتمية وقوعها، ولا تحدد موعدها، ومن ذلك أن الشمس تفقد من كتلتها في كل ثانية على هيئة طاقة مايعادل ٤,٦ مليون طن، وكما تفقد الشمس من كتلتها تفقد بقية النجوم، فكوننا حتما إلى زوال في لحظة يحددها الخالق(جلت قدرته) الذي أنزل لنا في محكم كتابه قوله الحق:

يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة...* (الأعراف:١٨٧)

الانفجار العظيم يؤكد حقيقة الخلق

من الحقائق التي وصل إليها علماء الفلك منذ بدايات القرن العشرين حقيقة توسع الكون وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إليها وذلك بقول الحق تبارك وتعالى: والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون (الذاريات:٤٧)

وقال علماء الفلك إننا إذا عدنا بهذا الاتساع إلى الوراء مع الزمن فلابد من التقاء كل مادة الكون وطاقته مع المكان والزمان في جرم واحد يتضاءل في الحجم إلى حد العدم، ويتعاظم في كم المادة والطاقة إلى حد لا يكاد العقل البشري أن يتصوره. وأن هذا الجرم الابتدائي انفجر فتحول إلى سحابة من الدخان خلقت منها الأرض والسماوات، وقد سميت هذه النظرية باسم نظرية الانفجار العظيم، ومن شواهدها تمدد الكون، ومن شواهدها أيضا وجود درجة حرارة ثابتة(حوالي٣ درجات مطلقة) على جميع أطراف الجزء المدرك من الكون، ومن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شواهدها كذلك تصوير بقايا الدخان الكوني الأولى على أطراف الجزء المدرك من الكون.
وعلى الرغم من معارضة عدد غير قليل من المتخصصين في مجال الفلك والفيزياء الفلكية لنظرية الانفجار العظيم فإننا نحن معشر المسلمين نقبل هذه النظرية، ونرتقي بها إلى مقام الحقيقة لوجود إشارة لها في كتاب الله من قبل أربعة عشر قرنا يقول فيها ربنا(تبارك وتعالى):
أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون *(الأنبياء: ٣٠).

وخلق الكون بعملية انفجار كبرى من أعظم الدلائل على الخلق والتدبير، لأنه من المعروف أن الانفجار بطبيعته يؤدي إلى بعثرة المادة وتناثرها، مخلفا وراءه الدمار، أما عملية الانفجار الكوني فقد أدت إلى إبداع نظام له تصميم دقيق، محكم الكتل، والأحجام، والأبعاد، والمدارات، والسرعات، والعلاقات، وهذا النظام مبني على نسق واحد من أدق دقائقه إلى أعظم وحداته على الرغم من تعاظم أجرامه وأبعاده ووحداته وتجمعاته، وتعقد علاقاته.
وانفجار هذه نتيجته لا يمكن أن يكون قد تم بغير تدبير وتقدير بالغي الإحكام والإتقان والإحاطة والقدرة لا يستطيعهما إلا الخلاق الحكيم العليم.

وجود المادة وأضدادها يؤكد على حقيقتي الخلق والتدبير

منذ الربع الأول للقرن العشرين، وكل من الحسابات الرياضية والاكتشافات في صفحة السماء يؤكد حقيقة الزوجية في الخلق فالضوء يتحرك أحيانا على شكل موجات وأحيانا أخرى علي شكل جسيمات(فوتونات)، وهذه الزوجية في الخلق تتحقق أيضا للمادة، فالجزء من المادة ليس نقطة هندسية ولكنه كيان ينتشر أيضا في الفضاء على هيئة موجية.
وقد أدت هذه الملاحظة إلى اكتشاف نقيض للإليكترون(أو قرينه)، وأن هذين النقيضين إذا التقيا فإن أحدهما يلغي الآخر أي يفنيه وينهي وجوده إلى العدم.
ومعنى ذلك أن أية كمية محدودة من الطاقة يمكن أن تتجسد في جسيمين، أحدهما نقيض لصاحبه في كل صفاته، بمعنى أنه صورة طبق الأصل له ولكنه معكوس الصفات، وأن هذين النقيضين إذا التقيا فإنهما يفنيان معا.
والغريب في الأمر أن يكتشف في صفحة السماء المادة وأضدادها على مختلف المستويات من اللبنات الأولية للمادة إلي المادة ذاتها:

Quarks and Antiquarks
and Antineutrinos Neutrinos
Electrons (Negatrons) and Positrons
Antiprotons Protons and
Neutrons and Antineutrons
Antimatter Matter and

ويعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية أن الكون قد بدأ بتركيز من المادة وأضدادها أي بدأ من العدم. والسؤال الذي يفرض نفسه هو: من الذي فصل تلك الأضداد حتى يخلق الكون ؟ ولا يمكن لعاقل أن يتصور ذلك بغير تقدير الخلاق العليم.
وحتى بعد فصل الأضداد لكي يخلق الكون، يرى العلماء حتمية إفناء بعض تلك الأضداد للبعض الآخر، والسؤال الذي يفرض نفسه هو: ما هو الفاصل بين المادة وأضدادها في صفحة السماء الآن حتى يوجد الكون ؟ ومن الذي وضعه؟ ولا يزال يحفظه؟
والجواب الذي لا مفر منه هو: وضعه الخالق العظيم الذي يقول للشيء كن فيكون. وعلى ذلك فإن مراحل خلق الكون منذ لحظة الانفجار العظيم قد خططت لها العناية الإلهية بدقة فائقة في ضبط درجات الحرارة ومعدلات تخلق الجسيمات الأولية للمادة، وسرعات الاتساع الكوني وغير ذلك من أمور حتى وصل الكون إلى حالته الراهنة، ولا يمكن لكل ذلك أن يتم بغير خلق وتدبير من الله الخبير العليم.

خلق العناصر في داخل النجوم وفي صفحة السماء من أدلة الخلق والتدبير

في دراسة للتركيب الكيميائي للجزء المدرك من الكون اتضح أن غالبيته غاز الإيدروجين الذي يشكل أكثر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من ٧٤% من مادة الكون المنظور، والإيدروجين هو أخف العناصر وأقلها بناء.
ويلي غاز الإيدروجين كثرة في مادة الكون المنظور غاز الهليوم الذي يكون ٢٤% من مادة الكون المنظور (وهو العنصر الثاني في الجدول الدوري للعناصر). وقد دفعت هذه الملاحظة إلى الاستنتاج الصحيح أن جميع العناصر المعروفة(وهي أكثر من ١٠٥ عناصر) قد خلقت كلها من غاز الإيدروجين.
وبدراسة أقرب النجوم إلينا وهي الشمس اتضح أن وقودها هو غاز الإيدروجين الذي تتحد أربع من نوياته(جمع مصغر نواة) لتكون نواة عنصر الهليوم وتنطلق الطاقة بعملية تسمى عملية الاندماج النووي، وعلى ذلك فالنجوم عبارة عن أفران ذرية كونية تتخلق بداخلها العناصر من نوى ذرات الإيدروجين حتى الحديد الذي لا تصله عملية الاندماج النووي إلا في آخر مراحل حياة النجوم العملاقة في لحظات انفجارها المعروفة باسم المستعرات العظمى، وبانفجار النجم تتناثر مكوناته من الحديد في صفحة السماء لتدخل في مجال جاذبية أجرام تحتاج الحديد، أو لتصطاد بعض اللبنات الأولية للمادة مكونة العناصر الأعلى في وزنها الذري. وهذه العملية وحدها كافية للتأكيد على حقيقة الخلق.

بناء الخلية الحية ينطق بحتمية الخلق والتدبير

* إذا علمنا أن عدد الأنواع الحية المعروفة لنا حتى الآن يتعدى المليون ونصف المليون نوع، وأن عدد الأنواع المندثرة والموجود لها بقايا علي هيئة أحافير في صخور الأرض يتعدى الربع مليون نوع، وأن عدد الأنواع المتوقعة للحياة الأرضية في ضوء الاكتشافات المعاصرة يصل إلى حوالي الخمسة ملايين نوع.
* وأن متوسط المدى الزمني للنوع الواحد من أنواع الحياة يتراوح بين نصف مليون سنة إلى خمسة ملايين من السنين، وقد يصل إلى عشرة ملايين من السنين، يمثل النوع خلالها ببلايين الأفراد.

* وأن جسم الإنسان على سبيل المثال يتكون من ملايين ملايين الأنواع المختلفة من الخلايا.
* وأن الخلية الحية الواحدة على قدر من التعقيد في البناء ـ على الرغم من ضآلة حجمها ـ يفوق كل ما حققه الإنسان من إنجازات تقنية فضلا عن كل الذي فكر في تحقيقه ولم يتمكن من ذلك بعد.

فالخلية الحية تتكون عادة من جدار حي(في كل من الإنسان والحيوان) مليء بالسائل الخلوي الهيولي (السيتوبلازم)، وبوسط هذا السائل توجد النواة، والسائل الخلوي معقد التركيب، وغير متجانس، ويتكون بشكل رئيسي من البروتينات والدهون، والسكريات وبعض العناصر المختلفة، وهذا السائل توجد به أعداد من الجسيمات المتخصصة(العضيات) ويعمل كوسيط تمر من خلاله المواد والمركبات والأوامر من النواة إلى أي من هذه العضيات، ومن أي منها إلى عضي آخر، أو إلى خارج الخلية.
ويفصل النواة عن السيتوبلازم غشاءان، والنواة تختزن معظم مادة الشفرة الوراثية للخلية الحية. أما الشبكة الاندوبلازمية فتربط بين الغشاء النووي والغشاء الخلوي، وهي شبكة معقدة تتصل بها حبيبات صغيرة تدعى الريبوسومات تقوم بتصنيع أكثر من مائتي ألف نوع من البروتينات التي تحتاجها الخلية الحية، حسب التعليمات التي تتلقاها من نواة الخلية، ومن العضيات ما يحمل الإنزيمات وهي مواد بروتينية تصنعها الريبوسومات وتساعد على هضم المواد الغذائية داخل الخلية، ومن العضيات مايقوم بتحويل المواد العضوية إلى طاقة تحتاجها الخلية الحية في عدد من نشاطاتها المحددة.

وتختلف الخلية النباتية في أن جدارها مكون من مواد غير حية، وأنها تحتوي على البلاستيدات الخضراء (اليخضور) وهي مادة لازمة لإتمام عملية التمثيل الضوئي.
والشفرة الوراثية تحملها جسيمات دقيقة في داخل نواة الخلية تعرف باسم الصبغيات وعددها محدد لكل نوع من أنواع الحياة، والصبغيات تحمل المورثات(الجينات) التي تحمل صفات الفرد من هذا النوع، والتي تعطي الأوامر للخلية بالانقسام، والتمييز وتخليق الأنواع المختلفة من البروتينات، وعلى ذلك فالنواة هي مركز المعلومات للخلية.

وتحاط النواة بغشاء يسمى الغلاف النووي، وتحتوي على مادة حبيبية دقيقة تسمى البلازما النووية التي تحمل كلا من الصبغيات والنوية، وقد تكون النوية واحدة أو أكثر.
وإذا علمنا أن الخلية الحية قد أعطاها الخالق(سبحانه وتعالى) القدرة على إنتاج مائتي ألف نوع من البروتينيات التي يوجد منها أكثر من مليون نوع، وأن الجزيء البروتيني يتكون من سلاسل من جزيئات الأحماض الأمينية،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأن الأحماض الأمينية المعروفة والقادرة على بناء الجزيئات البروتينية هي عشرين حمضا أمينيا. وأن هذه الأحماض مواد جامدة غير حية بذاتها. متبلورة سهلة الذوبان في الماء في أغلب الأحوال.

وأن الحمض الأميني يتكون من ستة عناصر أساسية هي الكربون، الإيدروجين، والأوكسجين، النيتروجين، الكبريت، والفوسفور. وأن مجرد اختيار هذه العناصر الستة من بين أكثر من١٠٥ عناصر معروفة لنا اليوم بالصدفة هو إحصائيا أمرا مستحيل.
وأن الأحماض الأمينية المناسبة لبناء الجزيء البروتيني لابد أن تكون من نوع خاص(ألفا)، وأن تكون الذرات مرتبة فيها حول ذرة الكربون ترتيبا يساريا، وأن تترتب هي في الجزيء البروتيني ترتيبا يساريا كذلك، وأن ترتبط برباط خاص يعرف باسم الرباط الببتيدي(PeptideBond)، وأن هذه القيود تجعل من تكوين جزيء بروتيني واحد بمحض الصدفة أمرا مستحيلا.

وإذا علمنا أن أبسط جزيء بروتيني يتكون من خمسين جزيئا من جزيئات الأحماض الأمينية العشرين المعروفة بكل هذه القيود السابقة، وأن بعضها مكون من آلاف الجزيئات للأحماض الأمينية المرتبة ترتيبا محددا، اتضح لنا بجلاء أن مجرد تكون جزيء بروتيني واحد بمحض الصدفة هو إحصائيا من مستحيل المستحيلات، ولذلك جاءت هذه الآية الكريمة بهذا القرار الإلهي من قبل ألف وأربعمائة سنة لتريح هذه النفوس القلقة والعقول المضطربة بين العديد من النظريات التي طرحت كبدائل للخلق وانتهت كلها بالفشل الذريع.
فسبحان القائل: الله خالق كل شيء وهو علي كل شيء وكيل*
وهو سبق علمي لكل المعارف البشرية، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الذي تلقى القرآن عن ربه فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، فجزاه الله عنا خير الجزاء والحمد لله أولا وأخرا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com